هل عرفنا عدونا ؟

من الواجب على كل من يحارب عدوًا : أن يعرفه على حقيقته معرفة محيطة ومستوعبة ، بحيث يعرف جذوره وأصوله ، ومقومات شخصيته ، وأخلاقه وصفاته الأساسية ، ومفاهيمه وقيمه وأحلامه وطموحاته ، وكيف يفكر ، وكيف يخطط ، وكيف ينفذ ، وبمن يستعين من الناس ، وبماذا يستعين من الوسائل ، وما يجوز عنده وما لا يجوز ، وما الذى يجمع شعبه وما الذى يفرقه ؟ وما الذى يحركه وما الذى يسكنه؟ وماذا يملك من أسباب ذاتية ، وماذا يستطيع أن يجلب من أسباب ومعونات خارجية . . إلى غير ذلك مما يكشف العدو ، ويعرف بحقيقته على ما هى عليه من قوة أو ضعف .

ونحن نعلم أن الدول فى عصرنا ومجالس أمنها القومى وأجهزة مخابراتها ومؤسساتها الاستعلامية والأمنية والعسكرية المختلفة ، تعمل جاهدة على أن تعرف كل ما تستطيع عن عدوها : جغرافيًا وتاريخيًا ، ماديًا وبشريًا ، اقتصاديًا وسياسيًا ، اجتماعيًا وثقافيًا ، فكريًا وروحيًا ، حتى تبنى استراتيجيتها على أساس علمى صحيح مستمد من الواقع .

كما نعلم أن إسرائيل ـ ومن وراءها من القوي الغربية المساندة لها وبخاصة الأمريكان ـ قد كشفونا حتى النخاع ، وأمسوا يعرفون عنا أكثر مما نعرف عن أنفسنا فى كثير من الأحيان . وعندهم من الوسائل والآليات ما يساعدهم على ذلك بيسر . .

ولا سيما أن كل ما عند هذه القوى الجبارة من معلومات متاح - بلا ريب - لإسرائيل وأجهزة إسرائيل .

فهل عرفنا نحن عدونا ، كما يوجبه علينا ديننا ومصلحتنا ووجودنا نفسه ؟؟ .

مصادر أساسية لمعرفة عدونا :

الحقيقة أننا لم نحسن التعامل مع عدونا ، كما ينبغى ، وكما تفرضه علينا طبيعة الصراع المرير والمديد، مع هذا العدو العتيد.

أما أننا لم نحسن التعامل مع عدونا ، فلأننا لم نعرف مواطن القوة عنده ، لنتحاشاها ، أو نقاومها بمثلها أو أشد منها إن استطعنا ، ولم نعرف نقاط الضعف فيه لنهاجمه منها ، وذلك لأننا لم نحاول بصدق أن نتعرف على شخصيته ، ونسبر أغوارها ، ونعرف خصائصها ومقوماتها ، ونظرتها إلى الأديان وإلى القيم وإلى الناس ، ولم ندرس المؤثرات الحقيقية على هذه الشخصية ، وبذلك نعرف كيف تفكر ، وكيف تخطط وكيف تنفذ ، لم نعرف ماذا تريد ، وكيف تصل إلى ما تريد . وربما تبين لنا بعض ما كان خافيًا من قبل ، ولكن لم نصل إلى ما كان يجب الوصول إليه من معرفة عدونا .

وكان فى إمكاننا بسهولة الرجوع إلى عدد من المصادر الأساسية الميسورة لنا لتعرفنا بحقيقة عدونا . أما هذه المصادر فهى :

القرآن الكريم :

المصدر الأول : القرآن الكريم : القرآن الكريم الذى أفرد للحديث عن بنى إسرائيل مساحة واسعة بين فيها خصالهم ، وكشف اللثام عن سماتهم النفسية والخلقية التى توارثوها خلفًا عن سلف ، حتى أصبحت كأنها طبيعة ثابتة . نجد ذلك واضحًا فى سورة البقرة بتفصيل ، وفى سورة آل عمران ، والنساء ، والمائدة ، من السور المدنية ، وفى سورة الأعراف ، وسورة الإسراء - وتسمي : سورة بني إسرائيل - وغيرها من السور المكية .

وصفهم القرآن الكريم بالقسوة والجبن فى الوقت ذاته وبالحسد والبغى ، وصفهم بنكث العهود والغدر ، والتطاول حتى على رسل الله ، بل على الله نفسه ، وعدم الخضوع إلا للقوة ، واستباحتهم لأموال من عداهم وحرماته .

اقرأ مثل قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ (البقرة:٧٤) .

وقد ظهرت هذه القسوة فى دير ياسين وفى صبرا وشاتيلا وغيرها .

وقوله سبحانه : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ﴾ (المائدة:١٣).

﴿ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴾ (الأنفال:٥٦).

والواقع يصدق القرآن بما نقضوه من الهدنات والاتفاقيات .

وقوله : ﴿ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ﴾ (الحشر:١٤).

فهم لا يقاتلون مواجهة حرصا على حياتهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ ﴾ (البقرة:٩٦) ولكن يختبئون وراء الحصون والحواجز . . وهم فى خلاف وتناقض فيما بينهم ، ولكنهم قادرون على إخفائه ، بحيث يحسبهم من ينظر إليهم من الخارج صفًا واحدًا ، رغم أن قلوبهم شتى ، ووجهاتهم متباينة .

وقال تعالى : ﴿ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ (آل عمران:١٨١).

فهذا يدل على تبجحهم وتطاولهم وقلة أدبهم ، حتى مع الله جل جلاله .

وقال سبحانه : ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴾ (آل عمران:١١٢)

فهذا يدل على أن الذلة مضروبة عليهم أينما كانوا إلا إذا اعتصموا بحبل من الله ، فآمنوا حقًا ، أو بحبل من الناس يحمونهم

كالأمريكان فى عصرنا . وذلك جزاء كفرهم وقتلهم أنبياء الله . واستمرارهم على العصيان والعدوان .

﴿ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (آل عمران:٧٥) .

وهذه هى مقولتهم مع العرب ومع سائر الأمم : أن لا حرج عليهم إذا أكلوا أموالهم ، ونهبوا ديارهم ، واستحلوا حرماتهم ، فليس عليهم في الأميين سبيل ! .

وصفهم القرآن بالغرور والزهو حيث قالوا : ﴿ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ﴾ . فرد عليهم القرآن بقوله : ﴿ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ﴾ (المائدة:١٨) ، ﴿ وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ﴾ . ورد عليهم القرآن دعواهم بقوله : ﴿ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة:٨٠).

ووصفهم القرآن بأنهم فئة لا تخضع إلا لمنطق القوة ، حتى أمر الله تعالى ونهيه لا يدينون له ما لم تكن فوقهم قوة مادية قاهرة تجبرهم على الطاعة ، وفى ذلك يقول القرآن : ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (الأعراف:١٧١).

وحديث القرآن عن القوم حديث طويل ، ينبغى أن يراجع فى مظانه من كتب التفسير القديم والحديث ، وقد أُلِّفت فى ذلك كتب خاصة [1] .

ولقد قال بعض المفسرين قديما : كاد القرآن يكون لموسى وبنى إسرائيل ! وذلك لكثرة ما ردد قصتهم .

المصدر الثانى : كتبهم المقدسة عندهم :

الثانى : كتبهم أنفسهم ، المقدسة عندهم ، « التوراة » التى وصفتهم بأنهم الشعب « الصلب الرقبة » وأفهمتهم أنهم « شعب الله المختار » وأن من حقهم إذا دخلوا قرية أن يستبيحوها .

وأسفار الأنبياء : حزقيال وأشعيا وغيرها ، التى شحنتهم وهيأت عقولهم وأنفسهم للعودة إلى « الأرض » التى هى أحد « الأقانيم الثلاثة » عندهم : الإله والشعب والأرض !.

والتلمود الذى جعل منهم أمة فوق خلق الله جميعًا ، تستعلى عليهم ، وتستحل دماءهم وأموالهم وأعراضهم ، وتستخدم فى ذلك كل وسيلة مهما تكن دناءتها ، فهى شريفة ومشروعة فى سبيل أغراضهم .

وكتبهم حافلة بأوصافهم والإنكار عليهم ، وعلى مواقفهم وأخلاقهم . ومن قرأها وجد فيها العجب ، من تمردهم على الله وعلى رسله .

---

(١) من ذلك كتاب : بنو إسرائيل فى الكتاب والسنة للدكتور محمد سيد طنطاوى ، واليهود فى القرآن لعفيف طبارة .

اقرأ مثل هذه النصوص :

تقول التوراة (سفر التثنية : ٣٢ ، ٣٣) فى هؤلاء القوم : « جيل أعوج ملتو . الرب تكافئون بهذا يا شعبًا غبيًّا غير حكيم ؟ « . . » انظر ماذا تكون آخرتهم؟ إنهم جيل متقلب . أولاد لا أمانة فيهم ».

« إنهم أمة عديمة الرأى ولا بصيرة فيهم » .

ويقول موسى نبيهم لهم وقد فاض به الكيل من سوء ما صنعوا معه : « لأنى أنا عارف تمردكم ، ورقابكم الصلبة . هو ذا وأنا بعد حى معكم اليوم قد صرتم تقاومون الرب فكم بالحرى بعد موتى! » وغيرها كثير وكثير .

المصدر الثالث : التاريخ :

وهو مخزن العبر ، ومعلم الأجيال ، وقد علمنا التاريخ أن اليهود يعيشون بين الشعوب عيشة الطفيليات فى الأجسام ، تتغذى منها ولا تغذيها ، وتأخذ منها ولا تعطيها ، وأنها تبنى نفسها على أنقاض غيرها . فهم أنانيون لا يعرفون إلا مصلحتهم ، ولا يؤمنون إلا بأنفسهم ، ولا يحكمون إلا منافعهم ، أما القيم والمبادئ والمثل العليا وغيرها مما يتشدق به الناس ، فلا تحترم عندهم إلا إذا كانت أداة للوصول إلى غاياتهم . وإلا فهى تحت الأقدام .

ومن قرأ تاريخ اليهود - أو بنى إسرائيل كما يسمونهم - من أسفارهم المقدسة عندهم ذاتها ، تبينت له هذه الحقيقة جلية جلاء الصبح لذى عينين ، كما أبرز ذلك الأستاذ محمد عزت دروزة فى كتابه عنهم « تاريخ بنى إسرائيل من أسفارهم » .

ومن قرأ تاريخهم معنا وتاريخنا معهم ، عرف ذلك جيدًا ، وعرف معه أنهم وراء كل فتنة ، ومصدر كل بلية ، حتى قال من قال : فتش عن اليهود ! .

كتابات المعاصرين عنهم :

المصدر الرابع : كتابات المعاصرين عن اليهود وأطماعهم وعن الصهيونية وأخطارها ، وعن شخصية الإنسان اليهودى وما تنطوى عليه بين جوانحها .

ولا أقصد كتابات العرب والمسلمين عنهم فحسب ، فقد يقال : إنها كتابة خصم عن خصمه ، وعدو عن عدوه . بل أقصد كتابات الغربيين عنهم ، وهم الذين هيأوا المناخ لدولتهم حتى ولدت ، وغذوها حتى شبت ، وأمدوها بكل أسباب القوة حتى طغت وتحدت وتعدت .

وآخر من كتب عنهم المفكر الفرنسى الكبير الذى هداه الله ، فانتقل من النصرانية والماركسية إلى الإسلام ، روجيه ـ أو رجاء ـ جارودى ، فى كتابه « أحلام الصهيونية وأضاليلها » الذى نشرته فى مقالات متتابعة عدة صحف عربية .

صحيح أنه نشر كتابه بعد أن أسلم ، ولكنه كتبه قبل أن يسلم ، وهى كتابة تعكس قراءة ومعايشة ومعاناة طويلة لأفكار القوم ومشاعرهم وأحلامهم وطموحاتهم وأخلاقهم . وكتب بعد ذلك كتابه الشهير (الأساطير المؤسسة لدولة إسرائيل) الذى هيج عليه الصهاينة فى أنحاء العالم ، وانتهوا به إلى أن يحاكم فى بلده فرنسا ، وأن يحكم عليه .

وليحذر فى الكتابات المعاصرة من أمر على غاية من الأهمية ، نقع نحن فى شباكه دون أن ندرى . ألا وهو المبالغة فى إبراز قوة اليهود ومكرهم ، كما تبرزه كتب مثل «الدنيا لعبة إسرائيل» و «وأحجار على رقعة الشطرنج» وغيرهما . فإن هذا يؤدى فى النهاية إلى لون من الجبرية السياسية ، يدعو إلى قبول الأمر الواقع ، والقضاء النافذ ، والاستسلام للقوة الخفية التى تحكم العالم القوى ، فكيف بنا نحن الضعفاء ؟!.

الواقع المعيش لليهود :

المصدر الخامس : هو الواقع ، واقعنا المعيش معهم ، وهو كتاب لم تتم فصوله بعد ، وهم يضيفون إليه كل حين فقرة أو فصلا أو بابا أو جزءًا . ونحن مع هذا به جاهلون وعنه غافلون .

واجهنا القوم فى عدة حروب ، وعقدنا معهم هدنات واتفاقيات ، وحضرنا معهم مفاوضات ، وتخاطبنا معهم بالكلام والسلاح .

وقد عرفنا هذا الواقع أن القوم لا يعترفون بقوة المنطق ، بل بمنطق القوة ، فهم بالقوة أخذوا الأرض من أصحابها ، وبالقوة حققوا حلم الوطن القومى ، وبالقوة أقاموا فيه دولتهم ، وبالقوة أضافوا إلى هذه الدولة أراضى جديدة : الجولان والقدس والضفة الغربية .

وبالقوة غزوا لبنان من قبل على مرأى ومسمع من العرب والمسلمين والعالم ، وفرضوا إرادتهم على المجتمع العربى والدولى بإخراج المقاومة الفلسطينية من بيروت فخرجت ، ولم

يكتفوا بذلك حتى عملوا على ذبح الفلسطينيين العزل فى مخيمات اللاجئين ، فذبحوا جهاراً نهاراً ، وما زالوا يعدون لمعارك أو مذابح أخر ! .

وآخر ما حملته الأنباء وأنا أكتب هذه السطور (١٩/١٠/١٩٨٢م)[١] ما قاله مناحم بيجين رئيس وزرائهم فى خطاب له بمناسبة افتتاح الدورة الشتوية للكنيست الإسرائيلى ، فقد أعلن أنه « لا حاجة مطلقا لمبادرات سلام جديدة فى الشرق الأوسط ، ما دام لا يوجد خطر أية مجابهة بين إسرائيل وجيرانها العرب خلال المستقبل المنظور » .

وأضاف : « ولذلك فإن السؤال المطروح هو : لماذا نهدم الهيكل الحالى للسلام ؟ ولماذا نخلق شروطا جديدة يمكن أن تؤدى إلى تجدد الحروب وإراقة الدماء » ! .

ومعنى هذا بصراحة : أن العجز العربى عن شن أى حرب هو وحده الذى يضمن سلام إسرائيل . ومعنى هذا كذلك : أن القوة فى نظر بيجين ومؤسسته العسكرية هى الأصل ، وهى الفيصل وهى الحكم . « تكلم السيف فاسكت أيها القلم! » .

وبيجن الواقعى لم ينس أن يقيد كلامه بقوله : « خلال المستقبل المنظور » يعني : ما لم تحدث متغيرات من حوله غير محسوبة ولا متوقعة ، كأن يصحو النائمون ، أو يجتمع المتفرقون ، أو يخطط المرتجلون ، أو يقدم المترددون ويعمل القاعدون ! .

---

(١) بعض أجزاء هذه الرسالة كتب منذ بضعة عشر عاما .

وواقعنا المعيش مع عدونا يعلمنا أن العنصر الديني له أكبر الأثر فى تكوين شخصيته ، وفى تحديد أحلامه وطموحاته ، وفى دفعه إلى بذل المال - برغم ما عرف عن اليهود من شح به وحرص عليه - وفى تحميسه للهجرة من وطن طال مقامه فيه ، وارتبطت مصالحه به ، وفى حفزه للمغامرة فى أعمال عسكرية قبل قيام الدولة وبعدها ، برغم ما عرف عن الإنسان اليهودى من جبن وحرص على حياة .

إنهم اختاروا فلسطين وطنا لهم بناء على أحلام ونبوءات دينية يؤمنون بها ، فهى فى نظرهم «أرض الميعاد» . إنهم يستقون أفكارهم وآمالهم من تعاليم توراتية تلمودية .

وقد بلغ من عنايتهم بالعنصر الديني فى قضيتهم : أنهم أثروا فى الغرب المسيحى ، وأقنعوه بأنهم يلتمسون حقًا قرره لهم الدين ، وبشرتهم به التوراة التى يؤمن بها المسيحيون ، وأن من لم يساعدهم فى تحقيق أمانيهم القومية يكون متنكرًا للتوراة ، جاحدًا بتعاليم الأنبياء! .

ولعل أقرب مثل يصدق هذا ما نشره الرئيس الأمريكي السابق «جيمى كارتير» فى مذكراته التى نشرت - منذ سنوات - حول اتفاقيات كامب ديفيد .

فهو يتحدث عن أول زيارة له إلى إسرائيل (مايو/ ١٩٧٣م) وكيف أعطته فرصة «لتعلم المزيد عن (أرض الإنجيل) التى درسنا عنها منذ أيام طفولتنا المبكرة» كما قال :

« وظللت ثلاثة أيام أبدأ من قبل الفجر تجوالى فى شوارع القدس القديمة ، وأملأ فراغى كل يوم وليلة بزيارات رائعة للأماكن المقدسة التى شهدت التاريخ القديم ، وللأماكن التى ما يزال يصنع التاريخ فيها » .

« تركت هذه الزيارة لإسرائيل انطباعًا كبيرًا علىَّ ، فعندما بدأت أعد حملتى الانتخابية لرئاسة الولايات المتحدة ـ فيما بعد ـ واصلت دراستى للتاريخ المعقد لمنطقة الشرق الأوسط ، وعندما أعلنت ترشيحى للرئاسة خصصت بالذكر تأييدى لالتزام الولايات المتحدة بأمن إسرائيل !

ويقول : « كانت الأخلاق اليهودية النصرانية ودراسة « التوراة » أواصر بين اليهود والنصارى ، وقد ظلت هذه الأواصر جزءًا من حياتى . كذلك قد كنت أعتقد اعتقادًا راسخًا بأن اليهود الذين لم تقض عليهم جائحة النازية يستحقون أن يكون لهم وطن خاص ، كما أن لهم الحق في أن يعيشوا فى سلام بين جيرانهم ، واعتبرت أن هذا الوطن القومى لليهود يتماشى مع تعاليم « التوراة » ! .

ولذا فإنه أمر شرعه الله !! وقد جعلت اعتقاداتى الخلقية والدينية هذه التزامى بأمن إسرائيل التزاما لا يتزعزع » [1] !!

ولقد نشرت الصحف منذ سنوات تصريحًا للجنرال الإسرائيلى المعروف موشى ديان يبرر به ضم القدس إلى إسرائيل وإنشاء

---

(١) الترجمة لجريدة « الشرق الأوسط » جدة - ١٩٨٢/١٠/٤م .

مستوطنات جديدة فيقول : « إن على الذين يعارضون هذه السياسة مراجعة موقفهم من الإنجيل والتوراة !).

وقد أثرت هذه الدعاية فى كثيرين فى مختلف القارات ممن يعتنقون النصرانية ، حتى نقل الأستاذ كامل الشريف فى كتابه « المغامرة الإسرائيلية فى إفريقيا » عن زعيم سياسى نيجيرى فى كتاب له عن إسرائيل قال فيه :

(إن إسرائيل ليست اسمًا جديدًا فى تاريخ العالم . فقد علمت فى مدرسة الأحد فى قريتى : أن شعب إسرائيل هو شعب الله المختار) !.

ولقد بلغ من تركيز عدونا على الجانب الدينى أنه حاول أن يستغل ديننا ذاته لتأييد قضيته ، حتى إنهم بعد حرب سبع وستين كانوا يرفعون أمام بعض ضباطنا وجنودنا لافتات كتب عليها قوله تعالى فى القرآن : ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ (البقرة:٢٤٩).

وأحيانا قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الروم:٤٧).

ومن عجائب ما سمعناه وقرأناه أن مناحيم بيجين حينما خطب ـ معقبا على خطاب الرئيس :« أنور السادات » فى الكنيست الإسرائيلى ـ ليؤكد حق اليهود فى إقامة وطن في فلسطين ، كان مما قاله : « إن حق إسرائيل فى فلسطين حق أبدى تاريخى تشهد له الكتب ، ومنها القرآن نفسه » .

واستدل هنا بالآية الكريمة التى جاءت فى سورة المائدة (آية٢١) على لسان موسي عليه السلام : ﴿ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴾ .

وقال : « إن الله فرض لنا الأرض المقدسة دون سائر الخلق ، فلا يجوز لأحد دينيا أن ينازعنا فيها » !!.

والآية تعنى : أنه كتب لهم دخولها ، أى قدره سبحانه ، وقد دخلوها بالفعل وأنفذ الله قدره ، بعد ما ضرب عليهم التيه أربعين سنة جزاء نكوصهم ، وقولهم لنبيهم ومنقذهم فى وقاحة متناهية : ﴿ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾ (المائدة:٢٤).

ولا تعنى الآية أن الله كتب لهم البقاء الدائم فيها ، وإلا لتناقض هذا مع الواقع ، فقد أُخرجوا منها منذ ألفى سنة !!.

كتابات اليهود عن أنفسهم :

المصدر السادس : ما يكتبه يهود اليوم عن أنفسهم : عن شخصية اليهودى ، عن هويته وتكوينه ، عن انتمائه وولائه ، عن طموحاته وأحلامه . عن دوافعه وغاياته .

وحسبى أن أسجل هنا بعض مقتطفات من كتاب صدر حديثا فى « الكويت » عن « الأيديولوجية الصهيونية » اعتمد مؤلفه على كتابات اليهود ـ من مختلف الاتجاهات الدينية والعلمانية ـ عن أنفسهم ، وتفسيراتهم لكتبهم ، ونبوءات أنبيائهم ، وتاريخهم البائد ،

وواقعهم القائم ، وتطلعاتهم الجامحة ، عن «الأقانيم الثلاثة» التى تتكون منها أيديولوجيتهم : الشعب . . التوراة . . الأرض .

يقول المؤلف : من المعروف أن التيار الحلولى فى اليهودية القديمة عبر عن نفسه فى إدراك العلاقة بين (اليهودى والأرض والله). وإذا كان تاريخ اليهود هو حجر الزاوية فى تاريخ العالم ، فالأرض المقدسة هى مركز الدنيا . والمعادل الجغرافى للتصور اليهودى للتاريخ .

وسنورد فيما يلي بعض الاقتباسات من كتابات بعض الصهاينة ، لنبين أن بنية الحلولية اليهودية التقليدية هى البنية الكامنة الواضحة فى موقف الصهاينة من الأرض ، وسنكتفى بالحد الأدنى من التعليق :

(تظهر الحلولية القديمة ، بشكل حاد وكامل ، فى كلمات الحاخام جاييم لانداو : إن روح شعبنا لا تستطيع التعبير عن نفسها إلا إذا عادت الحياة القومية إلى أرضنا من جديد ، لأن «القبس الإلهى» لا يؤثر فى شعبنا إلا وهو فى أرضه» .

أما الحاخام الصهيونى كوك فيقول :«ليست أرض إسرائيل شيئًا منفصلا عن روح الشعب اليهودى . إنها جزء من جوهر وجودنا القومى . ومرتبطة بحياتنا ذاتها ، وبكياننا الداخلى ارتباطا عضويا . . . إن ما نعنيه أرض إسرائيل يمكن فهمه فقط من خلال روح الرب المنتشرة فى شعبنا كله ، والتى تشع بتأثيرها على كل العواطف السليمة» .

هذه الحلولية الثلاثة قد لا تظهر واضحة فى كتابات الصهاينة العلمانيين ، ولكنها تظهر بشكل واضح فى كتابات بوبر ، الذى كتب لغاندى يقول :

« إننا لم نستطع ، ولا نستطيع أن نتخلى عن المطلب اليهودى ، فهناك شىء أسمى حتى من حياة شعبنا ، مرتبط بهذه الأرض ، إنه عمل الشعب ورسالته المقدسة ». « إننى أؤْمن بتزاوج الإنسان والأرض . . . إن هذه الأرض تعترف بنا لأنها ـ بواسطتنا ـ تصبح مثمرة ».

إن المطلق الذى يعلو على الإنسان قد ربط الشعب بالأرض ربطا لا فكاك للشعب منه .

واستعارة عبارة الزواج التى استخدمها بوبر ، تحيط بها هالة من القداسة فى التراث اليهودى ، فعلاقة الله بالشعب قد وصفت فى العهد القديم بأنها علاقة زواج ، ولا يختلف موقف بوبر ، برغم إنسانية مصطلحه الزائفة ، عن موقف الحاخام القبالى : « نحن شعب لا يليق بنا أن نلقب بإسرائيل (المدافعين عن الله) إلا إذا كنا فى أرض إسرائيل » .

ويقول جوردون « المتمرد » : « إن البعث القومى لن يتم إلا عن طريق العودة إلى حقول وطننا القومى وتحت سمائه . . إننا نأتى إلى وطننا لنزرع فى تربتنا الطبيعية التى نزعنا منها ، ولنضرب بجذورنا عميقة فى مصادرها الحياتية . ولنمد فروعنا بعيدًا خلال هواء وطننا القومى وتحت شمسه » .

« وحينما سئل وزير الدفاع الإسرائيلى السابق ، وهو عالم آثار يهودى أيضًا ، ومفسر غير متفرغ للتوراة ، عما إذا كانت مطالب إسرائيل « الدينية » و « التاريخية » بخصوص بعض أجزاء الأرض المحتلة يجب أن يكون لها دور فى السياسة الإسرائيلية ، أجاب قائلا : « هذا هو أساس الوجود الإسرائيلى ، وهى : الشعب اليهودى ، والكتاب المقدس وأرض اليهود .

(ولذلك) إذا اجتمعت التوراة وأمة التوراة فلابد أن تكون معهما أيضًا أرض التوراة » .

ويتحدث المؤلف عن العنف وفلسفته عند الصهاينة ، إلى أن يقول : « وهذا الجانب من الفكر الصهيونى يتضح بجلاء فى كتاب الثورة ، الذى كتبه مناحم بيجين . يقول فيلسوف العنف : « أنا أحارب ، إذن أنا موجود » .

« من الدم والنار والدموع والرماد سيخرج نموذج جديد من الرجال ، نموذج غير معروف البتة للعالم فى الألف والثمانى السنين الماضية : اليهودى المحارب أولا وقبل كل شىء ، يجب أن نقوم بالهجوم : نهاجم القتلة . بالدم والعرق سينشأ جيل متكبر كريم قوى » .

« والعنف عند بن جوريون ، يقوم بالوظيفة نفسها فى إعادة صياغة الشخصية اليهودية ؛ إذا يصف الرواد الصهاينة بهذه الكلمات : « كنا ننتظر مجىء الأسلحة ليلا ونهارًا ، ولم يكن لنا

حديث إلا الأسلحة ، وعندما جاءتنا الأسلحة ، لم تسعنا الدنيا لفرط فرحتنا ، كنا نلعب بالأسلحة كالأطفال ولم نعد نتركها أبدا... كنا نقرأ ونتكلم والبنادق فى أيدينا أو على أكتافنا». وموقف بن جوريون مبني على تصور جديد للشخصية اليهودية على أنها شخصية محاربة منذ قديم الأزل : «إن موسى ، أعظم أنبيائنا هو أول قائد عسكرى فى تاريخ أمتنا» ، ومن هنا يكون الربط بين موسي النبى وموشى ديان مسألة منطقية ، بل حتمية ، كما لا يكون من الهرطقة الدينية فى شىء أن يؤكد بن جوريون أن خير مفسر ومعلق على التوراة هو الجيش ؛ فهو الذى يساعد الشعب على الاستيطان على ضفاف نهر الأردن ، فيفسر بذلك كلمات أنبياء العهد القديم ويحققها . (ولنلاحظ كيف يكتسب العنف هو الآخر شيئا من القداسة !) .

(وإذا كان العنف هو البوتقة التى يولد من خلالها اليهودى الجديد ، فهو أيضا البوتقة التى يولد فيها المجتمع الصهيونى الجديد. فالجيش الإسرائيلى لا يقوم بالدفاع عن إسرائيل فحسب، بل إنه المكان الذى تولد فيه الحضارة الإسرائيلية ذاتها : «عن الجيش مدرسة للشباب الناشئ». دار حضانة لتفرد الأمة ، لحضارتها وشجاعتها ، «وهنا فى الجيش يجب أن يجند معلمونا بكل ما أوتينا من قوة». والجيش هو أكبر معهد تعليمى فى أرض الميعاد ؛ فالمهاجرون يلتحقون بهذا المعهد حال وصولهم إلى

إسرائيل ، حيث يكتسبون الخبرات ، ويتعلمون العبرية ، ويطرحون عنهم قصور المنفى ليصبحوا مواطنين إسرائيليين عاديين وحسب كلمات بن جوريون لعب الجيش دورا حضاريا أساسيًا فى مزج جماعات المهاجرين بعضها بالبعض الآخر) .

ويتحدث المؤلف عن الولاء عند اليهود ولمن يكون ، فكان مما قاله : (وقد عد ليفي أشكول المساهمات اليهودية التى تتم على «أرض أجنبية» محض خيانة للروح اليهودية الخالصة ، ومثل هذا الطرح يثير قضية ولاء اليهود ، ولمن يكون؟ والإجابة الصهيونية على هذا السؤال واضحة تمام الوضوح ؛ فولاء اليهود الموجودين فى كل مكان هو لشعبهم اليهودى ولوطنهم القومى فحسب ، وليس لأوطانهم التى يعيشون فيها. ولذا حذر كلاتزكين الشعب الألمانى من أن حدود ألمانيا لا تستطيع ، بأى صورة من الصور ، أن تحد من حركة الشعب اليهودى أو ولائه ، لأن ولاء اليهودى ليهوديته شىء يسمو على الحدود الوطنية : «إن اليهودى المخلص لا يمكنه إلا أن يكون مواطنًا يهوديًا ، ولا يمكن أن تجد فى الوجدان اليهودى أدنى أثر للقومية الألمانية ، ثم يضيف كلاتزكين «أن كل يهودي يدعو بلدا أجنبيا وطنه إنما هو خائن للشعب اليهودى». وبين وايزمان أن فى أعماق كل يهودى صهيونيا كامنا ، وأن أولئك الذين يتساوى ولاؤهم القومى اليهودى مع ولائهم لأوطانهم جدير بالرثاء والاحتقار).

(ولعل تقسيم العالم إلى يهود وأغيار ، الذى يتبناه الصهاينة ، ثم يعطونه مضمونا زمنيًا ، يأخذ شكلا إجراميًا فى كلمات الحاخام موشيه بن صهيون أو سبزاى ، الذى يفسر التلمود بطريقة تسوغ القضاء على الفلسطينيين واحتلال كل فلسطين ، ويأخذ هذا التقسيم ذاته شكلا عرقيًا قبيحًا فى كلمات الحاخام إبراهام أفيدان (زامل) ، حاخام القيادة المركزية الإسرائيلية ، حينما نصح بعدم الثقة فى العرب ، لأن على اليهود ـ فى رأيه ، وحسب الشريعة الدينية ـ ألا يثقوا فى الأغيار . ولكن حينما يخبر الحاخام الجنود الإسرائيليين أنه «مصرح لكم ، بل من واجبكم ، طبقا للشريعة ، أن تقتلوا المدنيين (من الأغيار) حتى لو كانوا من الخيرين ، أو بمعنى أصح ، المدنيين الذين قد يبدو أنهم خيرون ، حينما يقتبس لهم من التلمود هذه الكلمات : «ينبغى عليك أن تقتل أفضل الأغيار» فالمسألة تتوقف عن كونها عنصرية قبيحة ، لتصبح تحريضًا على الإبادة).

* * *